﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٣٧﴾ [مريم: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

المنهج القويم طريقه واحدة

الآية السّابقة آخر ما أَنْطَق اللّهُ تعالى به عيسى عليه السلام وهو في المَهْد، في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، حيثُ أمرهم بعبادة الله تعالى وتوحيده، وبَيَّن لَهم أنَّ عبادة الله تعالى وحْدَه هي الصّراط المستقيم، والمِنْهاج القويم، ومَن انتَكَب عنه فقد ضَلَّ عن الهداية، وزاغَ عن الحَقِّ، وفي هذه الآية الكريمة بيانٌ لأحوال أهل الكِتاب في تَلَقّيهم تلك الدَّعوة، حيثُ ضَلّوا ضلالًا بعيدًا، واختلفوا اختلافًا شديدًا في شأن المسيح وحقيقته، وإخْبارٌ مِنَ الله للرَّسولِ بتَفَرُّقِ بَني إسْرائيلَ فِرَقًا. "ولَمّا كانَ المَنهَجُ القَويمُ بحَيْثُ يَكونُ سَبَبًا للاجْتِماعِ عِنْدَ كُلِّ صَحيحِ المِزاجِ، عَجِبَ مِنهم في اسْتِثْمارِ غَيْرِ ذَلِكَ مِنهُ فقالَ: ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾ أيْ فتَسَبَّبَ عَنْ هَذا السَّبَبِ للاجْتِماعِ أنَّهُ اخْتَلَفَ ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ الكَثيرونَ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾: أَصلُ (خلف) مِنَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[2]، فالخَلَفُ: المُتَأَخِّرُ، سواء كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[3]، والخُلْفُ من قَوْلهم: وعَدَني فأخلفني إخلافًا، والخُلْفُ الاسْم، والإخلاف المصدر[4]، وأَمّا قَوْلُهُمُ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ، أَي: مُخْتَلِفونَ، فمِنَ هذا البابِ؛ لأَنَّ

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 198.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(4) الخليل، العين: (خلف).

كُلَّ واحِدٍ مِنْهُم يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِهِ، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[1]، والاخْتِلافُ افْتِعالٌ أُريدَ به شِدَّةُ التَّخالُفِ، ولا يُعْرَفُ لمادَّةِ هَذا المَعْنَى فِعْلٌ مُجَرَّدٌ، وزيادَةُ التّاءِ لِلْمُبالَغَةِ، مِثْلُ: (اكْتَسَبَ) مُبالَغَةً في (كَسَبَ)[2]، وحقيقة الاختلاف هنا: تقابل رأيين فيما ينبغي انفرادُ الرَّأي فيه، وهو اختلافهم فيما بَيْنَهُم في الطَّرائِقِ الَّتي سَلَكوها[3].

2) ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: (حزب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ، فمِنْ ذلكَ الحِزْبُ والجماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرآنِ[4]، والأَحْزابُ: كلُّ طائفةٍ هَواهُم واحدٌ[5]، والمقصودُ بالأحزاب في الآية: جَمعُ حِزْبٍ، وهو اسْمٌ للجَماعَةِ الَّذينَ هُم سَواءٌ في شَأْنٍ: مِنِ اعْتِقادٍ أَو عَمَلٍ أَو عادَةٍ، والمراد بهم هنا مَنِ اختلفوا في شأن عيسى عليه السلام مِن طوائف أهل الكتاب[6].

3) ﴿فَوَيْلٌ﴾: أصلُ اللَّفظ يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبة مهلكة لعمل أو تصرُّف[7]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمَشقَّة مِنَ العَذاب[8]، وتُقالُ لِمَنْ وقَعَ في هَلَكة يَسْتَحِقُّها، تَقولُ: ويْلٌ لزَيْدٍ، ومِنْهُ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين: 1]، فإن وقع في هَلَكة لَم يستَحِقَّها يُقال: ويْحٌ لزَيْدٍ، يَكونُ فيه مَعْنَى التَّرَحُّم[9]، والوَيْلَةُ: الفَضيحَةُ والبَلِيَّةُ، وتجمع على ويْلات[10]، ومَن قال: ويْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يُرِد أنَّ ويْلًا في اللُّغة هو موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللّه تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مَقرًّا مِنَ النّار، وثبتَ ذلك له[11]، والمقصود بالوَيْلِ في الآيةِ: سوءُ الحالِ، والمرادُ بهِ: الوعيد، والتَّهديد للمختلفين في شأن المسيح عليه السلام[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 105، وطنطاويّ، التّفسير البسيط: 1/ 252.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حزب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 157، و16/ 106، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 966.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(10) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(11) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(12) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 8/ 735.

4) ﴿مَّشْهَدِ﴾: أَصْلُ (شهد) يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلامٍ[1]، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ فُروعِه عَنِ الَّذي ذَكَرْناهُ، مِنْ ذلكَ المَشْهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيْءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ[2]، وهو هنا صالِحٌ لمَعانٍ، وهو أَنْ يَكونَ مُشْتَقًّا مِنَ المُشاهَدَةِ أو مِنَ الشُّهودِ، ثُمَّ إمّا أَنْ يَكونَ مَصْدَرًا ميميًّا في المَعْنَيَيْنِ، أَوِ اسْمَ مَكانٍ لَهُما، أَوِ اسْمَ زَمانٍ لَهُما، أي: يَوْمِ فيه ذَلِكَ وغَيْرُهُ[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

أخبر اللّهُ تعالى عن موقف أهل الكتاب مِن نبيّ اللّه عيسى ﷺ فقال: اختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى ﷺ، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زِنى، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللّهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللّهُ - تعالى اللّهُ عمّا يَقولونَ عُلوًّا كبيرًا - وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: إنَّه عبدُ اللّه ورَسولُه، فوَيلٌ للكافرينَ الَّذين اعتَقَدوا في عيسى مُعتَقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم مِنَ الكُفّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المُمتَلئَ بالشَّدائدِ والأهوالِ، المُشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِنَ العَذابِ والنَّكالِ[4].

العذاب والهلاك لأولئك الكفّار المُختلفين في شأن عيسى ﷺ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾:

الفاء في قَوْله تَعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ لتَرْتيبِ ما بَعْدَها عَلى ما قَبْلَها، تَنْبيهًا عَلى سوءِ صَنيعِهِم بجَعْلِهِم ما يوجِبُ الاتِّفاقَ مَنشَأً لِلاخْتِلافِ، فإنَّ ما حُكيَ مِن مَقالاتِ عيسى ﷺ مَعَ

مسارعةٌ إلى الاختلاف والكُفر

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 106 - 107.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 542، والواحديّ، التّفسير البسيط: 14/ 248، 249، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 232، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 493.

كَوْنِها نُصوصًا قاطِعَةً في كَوْنِه عَبْدَ اللّه تَعالى ورَسولَه، قَدِ اخْتَلَفَ اليَهودُ والنَّصارى بالتَّفْريط والإفْراط، فالمُراد بالأحْزاب اليَهود والنَّصارى[1]، أي: اختلَف أهلُ الكتاب في عيسى ﷺ بَعْدَ بيان أمره، ووضوح حاله، وأنَّه عَبْد اللّه ورسوله، فرَمت اليهود أُمَّه بالزِّنى، واتهمته بالسِّحْر، وانقسمتِ النَّصارى في شأنه انقسامًا كبيرًا، وهذا كُلُّه ضلالٌ وشِرْك وكُفْرٌ.

والفاءُ عند ابن عاشور لتَفْريع الإخْبارِ بحُصولِ الاخْتِلافِ عَلى الإخْبارِ بأنَّ هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ، أي: حادَ عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيم الأحْزابُ، فاخْتَلَفوا بَيْنَهم في الطَّرائِقِ الَّتي سَلَكوها، أي: هَذا صِراطٌ مُسْتَقيمٌ لا يَخْتَلِفُ سالِكوهُ اخْتِلافًا أصْليًّا، فسَلَكَ الأحْزابُ طُرُقًا أُخْرى، هي حائِدَةٌ عَنِ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ فلَم يَتَّفِقوا عَلى شَيْءٍ[2].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾:

دلَّ التَّعبير بالماضي ﴿فَٱخْتَلَفَ﴾ على تَحَقُّق اختلاف اليهود والنَّصارى في أَمر عيسى ﷺ وتأكّده، وهذا تمكين للتّعجيب مِن شأنهم.

معنى حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُه في ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾:

دَلَّ حرف الجَرِّ في قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ على أنَّ الاخْتِلاف لَم يَخْرُجْ عَنْ اليهود والنَّصارى، بَلْ كانوا هُمُ المُخْتَلِفينَ، فهُم بأنفسهم سَببُ الاختلاف وأَصْلُه، فإنَّ التَّناحر بينَ الأهواء والأوهام الضّالة هو الذي صَدَر عنه الاختلافُ مِن بَيْنِهم ومِن مضطربهم، وقد حكم اللّه تعالى بمآلهم في هذا الاختلاف، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهذا المعنى هو ما دَلَّ عليه حرف الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾[3]، فهم مصدر الاختلاف، ومآلُه إليهم، وأضاف البِقاعيُّ

اختلافُهم مِن بَيْنهم، فلَم يَخْرُج الخلافُ عَنِ اليهود والنَّصارى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/ 179.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 104.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4641.

فقال: "ولَمّا كانَ الاِخْتِلافُ لَم يَعُمَّ جَميعَ المَسائِلِ الَّتي في شَرْعِهِم، قال: ﴿مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ أي: بَني إسْرائيلَ المُخاطَبينَ بذَلِكَ[1].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

السَّببيَّة والتَّرتيب

الفاء في ﴿فَوَيۡلٞ﴾ لترتيب ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، أي: فتَسَبَّبَ عَنِ اخْتِلافِهِم أنّا نَقولُ: ويْلٌ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِنهم ومِن غَيْرِهِم[2]، وترتيبُه بالفاء؛ لترتيبهمُ الاختلافَ فيما هو كالصّراط المستقيم بالفاء؛ فالجزاءُ مِن جنس العمل.

الغرض مِنَ التَّنكير في ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

﴿فَوَيۡلٞ﴾ مبتدأ، وساغ الابتداء بالنَّكرة؛ لتَضمُّنِها معنى إيقاع الويل عليهم بالقضاء، فهو قضاءٌ على الذين كفروا بالهلاك والثُّبور، والتَّنكير للتَّهويل.

الغرض مِنَ التَّعبير بجملة الصلة:

تعليلُ الحُكْم بجملة الصِّلة

المُراد بالذين كفروا: المُخْتَلِفون، وعُبِّر عنهم بالموصول في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إيذانًا بكفرهم جميعًا، ولتعليل الحُكْم بالوَيْل والهلاك والثُّبور عن طريق جملة الصِّلة، فهم استحقّوا هذا العذابَ والهلاك، لكفرهم العجيب المُترتّبِ على معرفة الصّراط المستقيم!، ودلَّ التَّعبير بجملة الصِّلَةِ وفعليّة فعلها الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ على رسوخهم في الكُفْر، وإصرارهم عليه، وتقرير ثبوتِه لهُم.

دلالةُ التَّقييد بشِبْه الجملة في: ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾:

تصوير الحَدَث بأَوْجَز عبارة

﴿مَّشۡهَدِ﴾ إمّا أن يكون مصدرًا ميميًّا، أي: (مِن شُهودهم)، بمعنى حُضورهم، وإمّا أن يكون اسمَ زمانٍ أو مكان، و﴿مِن﴾ في ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾ بيانيَّة، وفي التَّعبير بشِبه الجملة: ﴿مِن مَّشۡهَدِ﴾ دلالةٌ تصويريَّة دقيقة، ونفسيَّةٌ عميقة؛ إذ إنَّها تُصَوِّر الحَدَث في

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 198.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 198.

ذلكم المشهد تصويرًا كاشِفًا مع وجازته؛ حيثُ جَمَعت بينَ الأَلَمَيْن: الجَسَديّ، والنَّفسيّ؛ فالعذاب على رؤوس الأشهاد، وفي هذا ذِلَّةٌ ومَهانةٌ وعذاب نفسي قد يوازي العذابَ الجسديَّ، فهؤلاء المَوْعودون بالعذاب كانوا في الدُّنيا كُفّارًا جبابرةً ظالمين، وهاهُم أولاءِ اليومَ يُهانون ويُعذَّبون أمامَ خَلْق الله جميعًا، ولا شَكَّ أنَّ هذا أقسى عليهم، وأوجَع لَهم، وأنْكى.

سِرُّ إضافة المشهد إلى يوم:

مـجـاز عـقـليّ بعلاقة الزَّمانيَّة

الإضافة في قوله: ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ﴾ بمعنى (في)، والتَّقدير: (مِن مَشْهدٍ في يوم عظيم)، وإضافة المَشْهَد إلى اليوم مجازٌ عقليٌّ بعلاقة الزَّمانيَّة؛ لتهويل هذا اليوم وتفخيمه، أي: ما سيكون فيه من أحداث.

سِرُّ تقييد الظَّرْف بالوصف ﴿عَظِيمٍ﴾:

عذاب الآخرة هوَ المَشْهد العظيم

قُيِّد الظَّرْف بالوصف: ﴿عَظِيمٍ﴾ دون سواه مِن (أليم) وغيره؛ لأنَّه يومٌ مشهود يَشْهَدُه الجميعُ، فالعذاب الدُّنيويُّ لا يشهده إلّا الحاضرون المُعاصرون، ولا يشهده السّابقون ولا اللّاحقون، أمّا عذابُ الآخرة فهو المَشْهد العظيم الذي يراه كُلُّ الخَلْق[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾ [الزُّخرف: 65]، فقد وُصِفُ الأحزابُ بالكفر في سورة مريم، ووُصِفوا بالظُّلم في سورة الزُّخرف، ولعلَّ السِّرَّ في هذا أنَّه قد فُصِّلت قِصَّة عيسى عليه السلام في سورة مريم، وورد فيها ذِكْر نِسْبةِ الأحزابِ عيسى عليه السلام إلى الله تعالى، وذلك في قوله

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 15/ 9068.

تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لذا كان مِنَ المُلائم وصفُهم بالكفر.

أمّا في سورة الزّخرف، فوردت قِصّة المسيح عليه السلام مجملةً [الزُّخرف: 57 - 64]؛ لذا كان مِنَ الملائم وصفُهم بلفظ أَخَفّ وهو الظّلم؛ لأنّ الكفر أشدُّ مِنَ الظّلم وأفظع[1].

كَما أنَّ آية مريم تقدَّمها وصْفُ الكُفّار باتِّخاذ الوَلَد، وهو كُفْر صريح، فناسبَ وصفَهم بالكفر، ولم يَرِد مثلُ ذلك في الزّخرف، بل قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ فوصفهم بالظّلم لاختلافهم[2].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن الكريم، ص: 136 - 137.
(2) ابن جماعة، كَشْف المعاني، ص: 148.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»